

عرف الشعر الجزائري في بداية القرن العشرين تطوّرًا ملموسًا بسبب النهضة الأدبية التي تأثر بها الشعراء خاصة النهضة المشرقية الإصلاحية الوطنية عن طريق الإعلام كجريدتي "اللواء" و"المنار" المصريتين؛ حيث "يرى صالح خرفي أنّ طليعة الأدباء الجزائريين كانت متأثرة بأدباء المشرق العربي وبخاصة شعراء النهضة، تَقَنَّفِي آثارهم وتَنَسَّجُ على منوالهم"¹ فألفوا المقالات والقصائد وساعدهم على نشرها بعض الصحف العربية كالمغرب 1903 و كوكب إفريقيا 1907م و ذو الفقار 1913، مع أنّ التطوّر كان بطيئًا في شكله ومضمونه ولكنه أعاد الثقة في نفوس الجزائريين وحاول أن يؤثّر في حياتهم الاجتماعية ويوجّههم إلى الصواب لتدارك لغتهم ودينهم. وفعلًا قد سرى مفعول الشعر وأصبحت القصائد الجيدة تُكتب والمقالات و المسامرات الأدبية، وهذا كلّ ساهم في النهضة الأدبية، رغم أنّ الاستعمار منع الشعب الجزائري من الاستفادة من الثقافة العربية بجعل حواجز بينه وبين إخوانه في المشرق والمغرب.

وقد ضعفت الشعر في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى؛ حيث "مثّلت الانتكاسة السياسية ثم الثقافة الفكرية و الأدبية فترة انكماش ثقافي أشبه بالغيوبة"² لأنّ الفترة التي تلتها - أي تلت الحرب العالمية الأولى - بدءًا من عشرينيات هذا القرن بدأت حركة اليقظة الوطنية في الاتساع بسبب الظروف المساعدة لها، فكان للأمير خالد حركته في مناورة الاحتلال منذ 1920م - 1922م، و يليه نجم شمال إفريقيا في 1926م، ليكون مصالي الحاج عضوًا تنفيذيًا فيها في هذا الخضم نشهد ميلاد جمعية العلماء المسلمين في 05 ماي 1931م كردّ فعل احتفال فرنسا بمرور قرن على احتلالها للجزائر، وقد كان لهذه الجمعية تأثير كبير لأنّها نابعة من صلب الأمة فكرًا و روحًا و انتماءً دون أن ننسى وجهتها الدينية والإصلاحية، وهذا التحوّل مسّ الجزائر

¹ عمار بن زايد، " النقد الأدبي الجزائري الحديث " ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1990، (د.ط)، ص 13

² عمر بن قينة، " في الأدب الجزائري الحديث " تاريخًا وأنواعًا وقضايا و أعلامًا ، الديوان الوطني للطباعة ، 1995، (د.ط)

اقتصاديًا، سياسيًا، ثقافيًا و اجتماعيًا. وكلُّ هذه الأحداث أصابت الجزائريين في الصميم مما أعادت إليهم وغيّتهم و أخرجتهم من قاعٍ عميقٍ مُظلم إلى حضارةٍ جديدةٍ؛ حيث يقول عمر بن قنور عن هذه الأحداث "...و قد قضت على الدور القديم و أنشأت الدورَ دورًا جديدًا أناسه غير الناس وأخلاقه غير الأخلاق"¹

وما نتج عن هذه الحرب هو ظهور "اليقظة الفكرية و السياسية والأدبية والفكرية وفيها رُسخت جذور الفكر العصري في البيئة الجزائرية، ممّا جعل منها فترةً تمتاز بالحركة و الدعوة إلى التطور و النهوض"² والتي كانت بدايتها مع حركة الإصلاح في الجزائر سنة 1925م التي جمعت نخبةً من أصحاب ثقافةٍ عربيةٍ وإسلاميةٍ؛ حيث بدأت اجتماعيةً دينيةً وانتهت سياسيةً وطنيةً، و تزامن هذا مع ظهور جمعية العلماء المسلمين التي كانت صورة حقيقة لرفض الإدماج والاحتلال.

ومن هنا فإنّ الانطلاقة الفعلية للنهضة الأدبية في الجزائر ارتبطت بهذه الحركة الإصلاحية التي كان رؤاؤها من خريجي المعاهد العربية العليا كتونس و متأثرين بالنهضة المصرية. كما كان للصحافة التي صمدت أمام عوامل سلبية منها الضغوط السياسية وتسلب اللغة الفرنسية دور بارز في نشر هذا الأدب، فقد أدّت الصحافة الجزائرية بالرغم من المطاردة الاستعمارية خدمةً كبيرةً للنهضة الأدبية الحديثة أهمها جريدة المنتقد سنة 1925م التي كانت بمثابة النادي الثقافي والأدبي الذي وضع فيه الشعراء بصماتهم، فقد كانت هذه الجريدة مرآةً تعكس أو تنقل ما يوجد في العالم الأدبي من إنتاج جديد استفاد منه شعراؤنا، و قد كان هدفها الوحيد هو العمل الموحد من أجل إحياء الشخصية العربية الإسلامية ودعّمه بأفكارٍ جديدةٍ للوقوف في وجه التيارات المضادة.

¹ د. محمد ناصر، " الشعر الجزائري الحديث : اتجاهاته وخصائصه الفنية 1925 - 1975"، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان 1985، ط 1، ص 27

² د عبد الله ركيبي "الشعر الديني الجزائري الحديث"، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ط 1، ص 7

ومن هنا أخذ الشعر الجزائري صورةً جديدةً خاصّةً مع ظهور صُحف أخرى لها نفس المبدأ مثل (الشّهاب وصدى الصّحراء و وادي ميزاب والإصلاح والبرق...). ولقيت إنتاجًا وفيرًا، كما ظهرت في العشرينات أسماءٌ عديدةٌ لشعراء اختاروا الشعرَ و أيدوا الحركة الإصلاحية منهم: مفدي زكريا، محمد العيد آل خليفة، العربي التبسي، ابن باديس، الطيب العقبي، الأمين العمودي، مبارك الميلي و أحمد سحنون وقد تطوّر الشعرُ تطوّرًا ملموسًا على يد حركة الإصلاح حيث تعدّدت الأغراضُ الشعرية، والشعرُ لم يكن نطاقه ضيقًا أو يدعو إلى غرضٍ معيّن؛ بل ارتبط بالمجتمع كلّهُ، بقضاياهِ وبالجزائريّ، وعبرَ عن آماله و مطامحه، فظهر الشعرُ الوطنيّ و الإصلاحيّ و الاجتماعيّ و السياسيّ، وتطوّر فنّيًا؛ حيث ألغى المقدّمات التقليدية، وأصبحت اللغةُ تقريريةً مباشرةً، و تخلّصوا من الصنعة اللّفظيّة و البديع المتكلّف، ومن تعدّد الأغراض في القصيدة الواحدة؛ حيث أصبح موضوعها واحدًا، وعرف التعبيرُ نوعًا من الانطلاق والحيويّة، واختاروا أسلوبًا غنائيًا تقليديًا متشابهًا.

و كلّ ما ذكرناه الآن دعت إليه حركة الإصلاح وينطوي تحت مدرسةٍ حملت لواء الإصلاح و المحافظة على التراث تُدعى المدرسة الشعرية المحافظة، هذه المدرسة التي حافظت على الطابع التقليدي للقصيدة القديمة مع بعض خصائصها، ورأت أنّ الشعر يخدم المجتمع و الدين والوطن فقط. مستبعدةً في ذلك كلّ ما له علاقةٌ بالعاطفة أو الخيال.

و في مقابل هذا ظهر اتجاه آخر أو مدرسة أخرى تجديديّة ناهضت الاتجاه المحافظ باعتباره ذي طابعٍ سلفيٍّ محافظٍ كانت له تأثيراته السلبية قلبًا و قالبًا ألا و هو الاتجاه الوجدانيّ الذي حاول أن يُكسّر قالب الوزن و القافية، أما المضمونُ فقد ابتعدَ عن الواقع و عاش الخيال الذي صنعه الشّاعرُ ليعبر عن خوالجه و أحاسيسه و احتفاله بالذات "فإن شئت أن تُسمّي التشاؤم الذي لم يسلم منه شاعرٌ من هذه الطليعة و القلق الذي عصفت بهم رومانسيةٌ قاتمةٌ فهي قاتمةٌ نابعةٌ من المأساة

قبل أن تكون صدّى لمذهب أدبي¹، وأصبح لهم مفهوم آخر للشعر على عكس الاتجاه المحافظ ولم يعتنوا بالصياغة اللفظية و المحسنات البديعية ونهجوا أساليب الحوار و القصّ الدرامي لم يعتمدوا سابقوهم. و يظهر اتجاه ثالث جديد مثل الشعر الحر الذي رفض الشكل العمودي للقصيدة و ركّز على اللغة الإيحائية والصورة المعبرة واستعماله الغموض و الرموز كرد فعل للهروب من القصيدة التقليدية.

وهنا نقول أنّ الشعر الجزائري الحديث ظهرت فيه ثلاث مدراس شعرية: مدرسة محافظة تقليدية هدفها المحافظة على التراث حتى لا يكون في طيّ النسيان, و مدرسة تجديدية وجدانية دعت إلى التجديد في المضمون و بعض الخصائص, و ثارت على الاتباعية التقليدية من أجل مواكبة العصر, واستدعت العاطفة وهذا ما سنتطرق إليه في الفصول الموالية. أمّا المدرسة الثالثة الخاصة بشعر التفعيلة الذي اعتمد على الإحالة والرمز, وجاء مخالفا تماما لسابقه.

وهذا التتبع لمسار الشعر الجزائري يُبين لنا التطور المستمر لبنية القصيدة في الشعر الجزائري الحديث. وما يمكن أن نسلم به أنّ الانطلاقة الحقيقية للشعر الجزائري كانت مع بداية الحركة الإصلاحية سنة 1925م.

¹ د صالح خرفي "المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث"، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع , الجزائر, 1983, (د.ط)، ص 110

